الفُرقان

قانون كوني في مواجهة الكذب والإعراض

سورة الفرقان بين وحدة البناء القرآني ونظريات العلم الحديث



د .محمود إسماعيل

الملخص

يستعرض هذا المقال سورة الفرقان بوصفها منظومةً معرفيةً متكاملةً لمواجهة الكذب والإعراض وبناء الوعي الإنساني، منطلقًا من محورية اسم السورةالفرقان ليكون قانونًا معماريًا يضبط منهجها كله .ويربط المقال هذا المنهج القرآني بأحدث نظريات علم النفس الاجتماعي والإقناع وتغيير السلوك، مُثبتًا أن الفرقان ليس اسمًا للسورة فقط بل قانون معرفي وحضاري دائم للفصل بين الحق والباطل وبناء الإنسان والمجتمع .

.**الكلمات المفتاحية :***سورة الفرقان، التضليل المعرفي، نظرية التطعيم، تغيير السلوك، عباد الرحمن، الفرقان الحضاري*

1 المقدمة :اسم يحمل برنامجًا كاملًا

حين نزلت الآية الأولى من هذه السورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، لم يكن الأمر مجرد افتتاحية بلاغية رائعة، بل كان إعلانًا عن طبيعة الكتاب وطبيعة مهمته ومآل أثره في الوجود الإنساني. فكلمة "الفُرقان" في أصلها اللغوي لا تعني مجرد التفريق بين الحق والباطل، بل تعني الفصل الحاد الذي لا يُبقي بين الطرفين التباسًا — كالسيف الذي يقطع لا الخيط الذي يفصل بالاهتزاز. ولعل أبلغ ما يُقال في وجه تسمية السورة بهذا الاسم أن المفسر ابن عاشور نبّه إلى ظاهرة بديعة في بنائها: لفظ "تبارك" يرد فيها ثلاث مرات، في أولها ووسطها وآخرها، كأن الفرقان يحكم البناء من طرفيه ومن مركزه، وليس مجرد علَم أُريد به التمييز. هذا التوزيع الثلاثي ليس اعتباطًا — فالسورة تقوم على ثلاث دعائم: إثبات القرآن وحيًا، وإثبات البعث جزاءً، وإثبات وحدانية الله خلقًا. وكل دعامة تنتهي بجملة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ كأن "الفرقان" الثلاثي نقاط إضاءة تُنير الطريق في ظلمة الجحود.

والمقال هذا دعوة إلى قراءة السورة بعيون العلم المعرفي الحديث: ليس لتأويل الآيات بما لا تحتمل، بل لاكتشاف كيف أن المنهج الذي انتهجته السورة في مواجهة الكذب والإعراض يتوافق في عمقه مع أحدث ما توصّل إليه العلم في علم النفس الاجتماعي، ونظريات الإقناع، وأبحاث تغيير السلوك.

.الفرقان ليس اسمًا للسورة فقط، بل قانون معرفي وحضاري دائم للفصل بين الحق والباطل وبناء الإنسان والمجتمع

2 الفرقان كمحور معماري للسورة

الوحدة العضوية للسورة

لا تفهم سورة الفرقان فهمًا حقيقيًا إلا إذا قُرئت كبناء معماري واحد متكامل، لا كأجزاء متفرقة متراصّة. فالسورة تبدأ بإعلان: ﴿الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقدِيرًا﴾، وتنتهي بالتذكير بأن هذا الخالق لا يعبأ بمن لا يدعوه. وبين هذا الإعلان وذاك التذكير، تنكشف درامة كاملة من ثلاثة فصول:

الفصل الأول (الآيات ١–٤٤): فصل المواجهة، حيث يُحكى فيه كل موقف من مواقف الإنكار ويُردّ عليه في الحال. **الفصل الثاني** (الآيات ٤٥–٦٢): فصل الكون الشاهد، حيث تُستدعى ظواهر الطبيعة شاهدةً على المُرسِل. **الفصل الثالث** (الآيات ٦٣–٧٧): فصل النموذج البديل، حيث يُقدَّم عباد الرحمن صورةً حيّة للإنسان الذي قبل الفرقان وجسّده في سلوكه.

هذا التقسيم الثلاثي ليس فرضًا خارجيًا على النص، بل تفرضه حرفيًا عبارة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ التي تبدأ الآية الأولى (١)، وتعود في الآية العاشرة ردًا على اعتراضهم على الرسول، وتعود ثالثة في الآية الحادية والستين افتتاحًا لفصل الكون. إنها ثلاثة أقواس تحمل سقفًا واحدًا اسمه: الفُرقان.

الفرقان ليس فقط اسمًا بل قانون تشغيل

والدقيق في الأمر أن "الفرقان" في السورة ليس مجرد وصف للقرآن، بل هو القانون الذي يحكم المنهج كله. فكل ما في السورة يعمل وفق هذا القانون: كل موقف إنكار يُفرز ردًا، كل شبهة تُولّد حجة، كل تكذيب يستدعي تاريخًا من الأمم المكذبة. وقد صاغت السورة هذا القانون بصراحة فريدة في الآية ٣٣: **﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحسَنَ تَفسِيرًا﴾**. وهي الآية الوحيدة في القرآن كله التي تصوغ قانون الرد الإلهي على الشبهات بهذه الصراحة الميتامنهجية , أي إنها لا تردّ على شبهة بعينها، بل تُعلن أن الردّ قادم دائمًا وأنه دائمًا (أحسن تفسيرًا).

منظومة الفرقان
الفرقان =تمييز الحق +كشف الباطل +إعادة التأطير +تصحيح الإدراك +بناء النموذج البديل

3 قانون الفرقان :الرد الأحسن على الشبهات

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحسَنَ تَفسِيرًا ﴾

الفرقان: ٣٣

قانون الرد الأحسن
شبهة ←رد قرآني ←تصحيح المفهوم ←تغيير السلوك ←الاستقرار الحضاري

4 تشكيك المصدر والطعن في الرسالة

أول سلاح رفعه المشركون في وجه القرآن كان تشكيك مصدره: ﴿إِن هَذَا إِلَّا إِفكٌ افتَرَاهُ﴾ (٤). ثم صعّدوا بنسب الأمر إلى "قوم آخرين" أعانوه على صياغته. ثم وصفوه بأنه "أساطير الأولين" استنسخها. ثم طالبوا بنزوله جملةً واحدة تدليلًا على أنه وحي حقيقي لا تلقينًا بشريًا.

لاحظ كيف تتراتب هذه الاعتراضات: من "افتراء شخصي" إلى "مؤامرة جماعية" إلى "نسخ تراثي" إلى "انتقاد منهج الوحي ذاته". إنها مسار تصاعد الإنكار حين تضيق به المنافذ المنطقية.

الرد القرآني جاء على مستويين: المستوى الأول مباشر — ﴿قُل أَنزَلَهُ الَّذِي يَعلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ﴾ (٦). وهنا يُلزمهم القرآن بمعادلة: إما أن هذا الكتاب جاء من مصدر يعلم السر — وهو الله — وإما أن تجيئوا بتفسير بديل لهذا العلم اللامحدود الذي يحويه. والتحدي هنا ليس "أتوا بسورة مثله" كما في مواضع أخرى، بل هو تحدٍّ معرفي أعمق: أثبتوا كيف يعلم بشر السرَّ الكوني.

المستوى الثاني لرد أسلوب "جملة واحدة" جاء بكشف الحكمة التشريعية: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (٣٢). التنجيم ليس ضعفًا في المصدر بل حكمة في الإيصال , وسنعود إلى هذه النقطة حين نتحدث عن نظريات تغيير السلوك.

5 الطعن في الرسول والسنة التاريخية

الطعن في شخص الرسول ﷺ أخذ أشكالًا متعددة في السورة: التعجب من بشريته ﴿مالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعَامَ﴾ (٧)، ووصفه بالسحر ﴿رَجُلًا مَّسحُورًا﴾ (٨)، والاستهزاء به ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١)، وادعاء أنه يضلّهم عن آلهتهم (٤٢).
والرد القرآني استخدم ثلاثة مسارات:
الأول: الإلزام بالتاريخ — ﴿وَمَا أَرسَلنَا قَبلَكَ مِنَ المُرسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُم لَيَأكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمشُونَ فِي الأَسوَاقِ﴾ (٢٠). البشرية سنة إلهية في الرسل، لا قدح فيهم — فاعتراضكم اعتراض على المنهج الإلهي كله لا على محمد وحده.
الثاني: قلب الاتهام — ﴿انظُر كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَستَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٩). الضلال ليس في الرسول بل في منطقهم — أمثالهم تتناقض وتتضارب، فمرة هو مسحور ومرة يُضلّ عن الآلهة، والمسحور لا يُضل الراسخين!
الثالث: تحويل الطلب إلى وعيد — حين طلبوا الملائكة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَينَا المَلَائِكَةُ﴾ (٢١)، جاء الرد أنهم سيرون الملائكة يومًا: ﴿يَومَ يَرَونَ المَلَائِكَةَ لَا بُشرَى يَومَئِذٍ لِّلمُجرِمِينَ﴾ (٢٢). أُعطيتم ما طلبتم، لكن في توقيت تختاره الحكمة لا الهوى.
ثالثًا: مشهد الندم — والرد باستشراف المستقبل
من أشد أساليب السورة في التصدي للإعراض مشهد الندم المستقبلي في الآيات ٢٧–٢٩: الظالم يعضّ يديه يوم القيامة ويقول ﴿يَا لَيتَنِي اتَّخَذتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾. هذا الأسلوب لا يعظ بلغة الأمر، بل يضع المخاطَب أمام مآل قراره — يُريه نتيجته قبل أن تقع، فيمنحه فرصة المراجعة. وهو ما سمّاه علماء النفس المعرفي اليوم (التباين الأفقي بين الذات الحاضرة والذات المستقبلية).

6 الفرقان ونظريات علم النفس الحديث

> السبق القرآني المذهل: وظّفت سورة الفرقان منظومة متكاملة من آليات الإقناع والتأثير وتغيير السلوك، وهي الآليات التي لم يبدأ العلم الحديث في اكتشافها وتوثيقها إلا بعد قرون طويلة من نزول القرآن، كما تشهد بذلك أبحاث منشورة في *Nature*و *Science*و *Psychological Review*.

نظرية التطعيم المعرفي (Inoculation Theory)

في عام ١٩٦١ طرح عالم النفس الاجتماعي ويليام ماكغواير نظريته الشهيرة "التطعيم ضد الإقناع .(Inoculation Theory) "وخلاصتها أن أفضل طريقة لمنع الناس من الوقوع في الخداع ليست مجرد تزويدهم بالمعلومات الصحيحة، بل هي تعريضهم مسبقًا لنسخة مُضعَّفة من الحجة المضللة، مع تزويدهم بالرد عليها. وقد أثبتت أبحاث ليا ماكو وآخرين (٢٠١٩) في مجلة Nature أن هذا الأسلوب أكثر فاعلية في مواجهة المعلومات المضللة من الردود المباشرة المجردة.

والمدهش أن سورة الفرقان تعمل بهذا المنطق بدقة مذهلة. فهي لا تكتفي بعرض الحقيقة، بل تحكي الشبهة كاملة — ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ — ثم تردّ عليها. فالمؤمن الذي يتلو السورة يتلقّى "تطعيمًا معرفيًا": يسمع الشبهة كاملة ثم يسمع ردّها، فلا يُفاجأ بها حين تُطرح عليه في الشارع أو في السوق. هذا بالضبط ما توصّل إليه ماكغواير قبل أربعة عشر قرنًا من ورقته البحثية.

نظرية الرنين المفاهيمي وإعادة التأطير (Conceptual Framing)

أثبت عالم اللغويات المعرفي جورج لاكوف في كتابه الشهير "لا تفكر في فيل" (٢٠٠٤) أن الصياغة اللغوية للفكرة تحدد ردة الفعل عليها قبل أي محتوى آخر. فحين تقول "الجريمة وباء" تستدعي في ذهن المستمع أطر الصحة العامة، وحين تقول "الجريمة وحش" تستدعي أطر المعركة. والإطار يحكم الاستجابة حتى قبل أن يُعالج العقل المحتوى.

وسورة الفرقان تُمارس هذا بدقة فائقة في أسلوب إعادة تأطيرها للاعتراضات. حين قالوا "رجل مسحور" — إطار المرض والجنون — ردّت السورة بإطار الحقيقة التاريخية: هكذا قيل للأنبياء السابقين ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٣١). فانتقلنا من إطار "هذا مجنون" إلى إطار "هذا نبيّ يلقى ما يلقى الأنبياء" — وهو انقلاب كامل في الدلالة دون تغيير الواقعة.

وحين اشترطوا كنزًا أو جنة — إطار الربح الدنيوي كدليل على الحق — لم يردّ القرآن بنفي الإطار بل قلبه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ﴾ (١٠). الله قادر على ما تطلبون وزيادة — لكن منطق الرسالة أعلى من منطق الثروة.

الفقاعة الصدوية والانحياز التأكيدي (Echo Chamber)

حدد الباحثون في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (دراسة فوسودي وآخرون، ٢٠١٨ في مجلةScience) أن الأخبار الكاذبة تنتشر بسرعة أكبر من الحقيقية في الشبكات الاجتماعية. وعزّوا ذلك جزئيًا إلى ما يسمى "تحيّز التأكيد :(Confirmation Bias) "الناس يميلون إلى استهلاك المعلومات التي تؤكد ما يؤمنون به مسبقًا.

وهذه الظاهرة بالذات هي التي تصفها الآية ٤٤ بأدق من أي تعريف حديث: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. والسياق: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾. العقل موجود لكنه موقوف — لا لعيب بيولوجي بل لأن الهوى يعمل مرشّحًا يمنع الإشارات غير المرغوبة من المعالجة. الإنسان يسمع لكنه لا يُنصت؛ يُبصر لكنه لا يرى. وهذا تمامًا ما يصفه علماء الأعصاب المعرفيون حين يتحدثون عن "الاختزال الانتقائي للإشارات (Selective Signal Reduction) "في القشرة الأمامية حين يتعرض الشخص لمعلومات تتعارض مع معتقداته.

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ — إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

الفرقان: ٤٤

التغيير التدريجي وبناء السلوك

في عام ١٩٦٦ طرح فريدمان وفريزر تجربتهما الشهيرة [القدم في الباب(Foot-in-the-Door)] ، التي أثبتت أن الطلب الصغير الأول يُمهّد لقبول الطلب الكبير لاحقًا. وقد طوّر هذه النظرية باحثون لاحقون في سياق تغيير السلوك الصحي والاجتماعي — حيث خلصوا إلى أن التغيير التدريجي أكثر ثباتًا ورسوخًا من التغيير الانقلابي المفاجئ.

وحين سألوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُملَةً وَاحِدَةً﴾ (٣٢)، جاء الجواب: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلنَاهُ تَرتِيلًا﴾. التنجيم ليس ضعفًا بل هو الحكمة في التغيير , فالنفس البشرية تحتاج إلى التحوّل التدريجي حتى يترسّخ التحوّل في بنيتها لا في قشرتها فحسب. وقد كشفت الأبحاث العصبية الحديثة أن إعادة بناء الشبكات العصبية (Neuroplasticity) تتطلب تكرارًا متدرجًا لا صدمة واحدة، وهذا بالضبط ما يعنيه "ترتيل" القرآن في سياق الوحي التدريجي.

الذاكرة الجمعية والتاريخ كحجة

طرح عالم الاجتماع موريس هالبواكس مفهوم "الذاكرة الجمعية (Collective Memory) "أوائل القرن العشرين، مؤكدًا أن الهويات تُبنى على ما تختاره الجماعات من ذاكرتها التاريخية المشتركة. وأثبتت الدراسات اللاحقة ـــ لا سيما أعمال جان أسمان على (الذاكرة الثقافية) ـــ أن الربط بالتاريخ يُقنع أعمق من الحجة المجردة لأنه يُفعّل الهوية لا العقل المنطقي وحده.

وسورة الفرقان تستدعي الذاكرة التاريخية في الفصل الثاني منها (٣٥ـ٤٠) استدعاءً منهجيًا: موسى وهارون، ثمود، عاد، قوم نوح، أصحاب الرس، قوم لوط. ليس ذكرًا عابرًا بل منهجيًا يبني حجةً استقرائية: كل هذه الأمم كذّبت، وكل منها أُهلكت. القانون ليس انتقامًا بل سنة ـــ ﴿وَكُلًّا ضَرَبنَا لَهُ الأَمثَالَ وَكُلًّا تَبَّرنَا تَتبِيرًا﴾ (٣٩). والدعوة الضمنية لقريش: أنتم في مفترق الطريق بين أن تكونوا من يسلك، أو من يُضرب مثلًا.

> ﴿ وَكُلًّا ضَرَبنَا لَهُ الأَمثَالَ وَكُلًّا تَبَّرنَا تَتبِيرًا﴾)٣٩ (ـــ القانون ليس انتقامًا بل سنة

7 الظواهر الكونية فرقانٌ في الكون

بعد أن فرغت السورة من معركة الشبهات والردود، قلبت الخطاب تقليبًا جذريًا :لم تنتقل مباشرةً إلى النموذج الإنساني البديل، بل توقفت أمام الكون كله شاهدًا .تسع آيات متتالية)٤٥ـ٦٢ (تستدعي الظل والشمس والليل والنهار والرياح والمطر والبحرين والنسب والصهر, ليس للتعليم الكوني فحسب، بل لتأسيس الفرقان في الكون ذاته قبل أن يتجلى في الإنسان.

الظل والشمس :الفرقان المرئي في طبيعة الأشياء

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾)٤٥ـ٤٦ .(الظل والشمس يمثلان الفرقان الكوني الأول :لا وجود للظل إلا بوجود النور الذي يُحدّده ـــ هو الفرق المرئي في طبيعة الأشياء .والله يُحرّك هذا الفرق بإرادته، ثم يقبضه قبضًا يسيرًا ـــ إعلانٌ بأن الفرق بين الحق والباطل مُقدَّر إلهيًا لا يعبث به أحد.

ثم يتتالى الفرقان الكوني :الليل لباس والنوم سبات والنهار نشور)٤٧ (ـــ فرقان الراحة والعمل؛ والرياح بشراء بين يدي المطر)٤٨ (فرقان البشارة والرحمة؛ والبحران العذب والملح حجر بينهما حاجزًا)٥٣ (ـــ فرقان الحياة والتلاشي؛ والنسب والصهر أنواع الرابطة الإنسانية)٥٤ (ـــ فرقان الأصول والمصاهرة .الكون كله مبني على الفرق والتمييز، والفرقان اسم ينسجم مع سنة الله في خلقه .

> **﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ خِلفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُورًا ﴾**
>
> *الفرقان ٦٢:*

والآية ٦٢ هي العتبة الرابطة بين فصل الكون وفصل عباد الرحمن :﴿لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُورًا﴾ ـــ الكون لا يُفرق بين المتذكر والمُعرض، لكن الفرقان الحقيقي يقع في الإرادة الإنسانية .فالمتذكر يرى الكون آياتٍ، والمُعرض يرى ما يراه بلا معنى .وبين هذين يقع الفصل الأعمق الذي تُجسّده السورة في عباد الرحمن .

الكون كله في سورة الفرقان شاهد على قانون الفرق الإلهي :ظل وشمس، ليل ونهار، عذب وملح، نسب وصهر ـــ كل ثنائية كونية تُعلن أن الله بنى الوجود على الفرقان قبل أن يُنزله في القرآن .

8 التوكل والتسبيح :الجسر البنيوي في قلب السورة

في قلب السورة تحديدًا، وبعد أن استوعبت الكونَ شاهدًا على الفرقان، يأتي الخطاب الإلهي المباشر للرسول ﷺ :﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّح بِحَمدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾)٥٨ .(وهذا ليس استطرادًا في السورة بل هو الجسر البنيوي الأعمق بين فصلين .

التوكل ردٌّ على الإعياء من المواجهة

.بعد أربع وخمسين آية من المواجهة المتواصلة مع الشبهات والاعتراضات، يأتي الأمر الإلهي للرسول ﷺ :توكّل على الحي الذي لا يموت وهذا توجيه جوهري :المواجهة الحقيقية ليست بالحجة وحدها، بل بالتعلق بالمصدر الإلهي .فالرسول لم يُكلَّف بإقناع الجميع، بل بأداء الأمانة .مع التوكل الكامل على من يعلم بذنوب عباده .التوكل هو الفرقان الداخلي في قلب الرسول بين الاستعانة بالله والاستناد إلى النفس .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّح بِحَمدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾

الفرقان ٥٨

التسبيح تطهير للمسار وإعداد للنموذج

.والتسبيح في الآية ذاتها ـــ ﴿وَسَبِّح بِحَمدِهِ﴾ ـــ ليس مجرد عبادة إضافية بل تنزيه فعلي :نزّه الله عما يصفه به الجاحدون من الشركاء والنقائص والتسبيح هنا يُؤدي وظيفة بنيوية في السورة :إنه الجسر من فصل)مواجهة الكاذبين (إلى فصل)تقديم النموذج المسبّح الذاكر الشاكر .(فعباد الرحمن الذين يأتون بعدها مباشرةً هم عباد الرحمن الذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا ـــ أي هم تجسيد حي للتوكل والتسبيح المأمور بهما.

وفي الآية المجاورة مباشرةً :﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرشِ الرَّحمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾)٥٩(والمشركون يسألون أمام هذا كله بتعجب وإنكار :﴿وَمَا الرَّحمَانُ أَنسجُدُ لِمَا تَأمُرُنَا﴾)٦٠ .(فجاء الرد بآية النور الكوني الختامية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾)٦١ (ثم آية الخلفة الرابطة ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ خِلفَةً﴾)٦٢(.

العلاقة الثلاثية :التوكل ـــ الكون ـــ النموذج البشري

يتضح الآن البناء الإلهي الثلاثي المتكامل في قلب السورة :أولًا، الكون يُعلن الفرقان بظواهره)٤٥–٥٧ .(ثانيًا، الرسول مأمور بالتوكل ــوالتسبيح كنموذج قيادي أمام هذا الكون)٥٨–٦٢ .(ثالثًا، عباد الرحمن يأتون كتجسيد بشري لهذا التوكل والتسبيح في الحياة اليومية)٦٣ ٧٧ (فليست السورة انتقالًا مفاجئًا من المواجهة إلى النموذج، بل هي رحلة متدرجة :الكون يُعلن ←الرسول يُجسّد ←عباد الرحمن ينتشرون.

التوكل والتسبيح في الآية ٥٨ ليسا حكمًا فرديًا للرسول ﷺ فحسب، بل هما البنية الداخلية التي يجب أن يقوم عليها كل من يحمل الفرقان في مواجهة الكذب والإعراض ـــ هذا ما جسّده عباد الرحمن بعدها مباشرةً .

عباد الرحمن :النموذج الإيجابي البديل (من دحض الباطل إلى بناء البديل)

﴿ وَعِبَادُ الرَّحمَنِ الَّذِينَ يَمشُونَ عَلَى الأَرضِ هَونًا ﴾

الفرقان ٦٣

لماذا لا تكفي الردود وحدها؟

الاكتشاف الأعمق في سورة الفرقان ليس في أسلوب الرد على الشبهات، بل في قرارها الإبداعي بأن تختم ليس بوعيد أو حجة بل بـ"عباد الرحمن". هذا القرار يفهمه العلم الحديث اليوم تمامًا.

فمن أهم ما كشفت عنه علوم الإقناع في النصف الثاني من القرن العشرين أن "الرد السلبي" وحده — أي دحض الخطأ — ليس كافيًا لتغيير القناعات. فقد وثّق بريندان ناهان وزملاؤه في دراسة ٢٠١٠ ظاهرة "الرجعية المعكوسة :(Backfire Effect) "في بعض الحالات، تعريض الناس للمعلومات المصحِّحة ربما يزيد تمسكهم بمعتقداتهم الخاطئة بدلًا من تصحيحها! والسبب أن التصحيح المجرد يُشعل التهديد الهوياتي، فيتحصّن الشخص بدلًا من أن ينفتح.

الحل، كما يُقرره العلماء الآن، هو تقديم "النموذج البديل الجذاب (Attractive Alternative Model) "قبل توقع التحول — أي إقناع الناس بأن الحياة الأفضل ممكنة قبل أن تُطالبهم بالتخلي عن الحياة الحالية.

عباد الرحمن: نموذج متكامل لا قائمة أوامر

وهنا تتجلى العبقرية المنهجية لسورة الفرقان. فعباد الرحمن لم يُقدَّموا كقائمة فضائل دينية باردة، بل كنموذج إنساني متكامل في خمسة عشر صفة تغطي كل أبعاد الحياة: السلوك الاجتماعي (المشي هونًا، رد السلام)، والعبادة الخاصة (قيام الليل)، والإدارة المالية (القوام بين الإسراف والإقتار)، والموقف الأخلاقي (نبذ الزور، اجتناب الكبائر)، والعلاقات الأسرية (الدعاء لصلاح الذرية)، والطموح القيادي (﴿وَاجعَلنَا لِلمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾).

هذا التكامل ليس عرضيًا. فالأبحاث في التغيير السلوكي — لا سيما نموذج "تحديد الهوية (Identity-Based Change) "الذي طوّره جيمس كلير في كتاب "العادات الذرية(Atomic Habits "، ٢٠١٨ — (تُثبت أن أكثر أشكال التغيير ثباتًا ليس الذي ينطلق من أريد أن أفعل كذا، بل الذي ينطلق من أريد أن أكون النوع من الإنسان الذي يفعل كذا وعباد الرحمن في السورة هم بالضبط هذا: ليسوا من يؤدون فروضًا بعينها، بل من يحملون هوية تترتب عليها تلقائيًا تلك الأفعال.

الانتساب إلى الرحمن لا إلى العبودية المجردة

ولا يغيب عن الباحث المتأمل أن الآية لم تقل "عباد الله" بل ﴿عِبَادُ الرَّحمَنِ﴾ (٦٣). وفي هذا الاختيار ما فيه. فالرحمن اسم تكرّر في السورة بعد أن رفضه المشركون تحديدًا ﴿وَمَا الرَّحمَانُ أَنَسجُدُ لِمَا تَأمُرُنَا﴾ (٦٠). فكأن السورة تقول: هذا الاسم الذي رفضتموه ,ها هم عباده في الحياة الحقيقية. إنكاركم للاسم لا يُلغي وجود أصحابه.

وعلميًا، هذا ما تُسمّيه نظرية "الهوية الاجتماعية" لتايفل وتيرنر :(Social Identity Theory, 1979) الانتماء إلى مجموعة محددة بهوية إيجابية جاذبة يُعزز الالتزام بمعايير تلك المجموعة ويجعل الانحراف عنها مكلفًا نفسيًا. وعباد الرحمن مجموعة بهوية واضحة: من يمشون هونًا ومن يبيتون سجدًا وقيامًا — هذه ليست أفعالًا منفصلة بل علامات هوية مترابط.

9 الفرقان كمنهج حضاري

حين نقرأ السورة بهذه العيون نُدرك أنها لا تتحدث فقط عن حادثة تاريخية كانت مواجهة بين الرسول ﷺ وقريش في القرن السابع الميلادي، بل تُقرر منهجًا حضاريًا خالدًا لمواجهة ظاهرة الإنكار والإعراض في كل زمان.

فالكذب والتشكيك في الحق ليسا أمراضًا طارئة بل سمة ملازمة لكل حق جديد ,فكرةً كان أم رسالةً أم اكتشافًا. وقد وثّق توماس كون في كتابه "بنية الثورات العلمية" (١٩٦٢) كيف أن كل نموذج علمي جديد (Paradigm Shift) يواجه دائمًا ثلاثة مراحل: الرفض ثم الاضطهاد ثم القبول. وسورة الفرقان تحدثت عن المرحلتين الأولى والثانية بتفصيل، وعن قانون تحوّل التاريخ في المرحلة الثالثة بإشارة في قوله ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١).

حين يختفي الفرقان تضطرب الحضارة

ولعل أشدّ ما تحذر منه السورة في المستوى الحضاري هو ما وصفته بـ"الهجر المنظّم للفرقان": ﴿اتَّخَذُوا هَذَا القُرآنَ مَهجُورًا﴾. فالهجر ليس مجرد إهمال فردي، بل حالة مجتمعية تُفقد الجماعة معيارها الفارق فتتساوى الحقيقة والكذب، وتتشابه الهوية والخداع، وتضيع الأولويات.

وهذا بالضبط ما يصفه الباحث الاجتماعي هيوغو ميرسييه في كتابه "لم نولد بالامس(Not Born Yesterday, 2020) "، حين يُحلل كيف أن المجتمعات التي تفقد معاييرها النقدية المشتركة (Shared Epistemic Standards) تصبح أكثر عرضة للتلاعب الجماعي لا الأقل، لأن غياب معيار التحقق يُسوّي بين كل الادعاءات.

القوانين الثلاثة للفرقان
١ .قانون الرد الأحسن | ٢ .قانون السنة الكونية |٣ .قانون النموذج الفاعل

يمكن لمن يُمعن في سورة الفرقان أن يستخلص ثلاثة قوانين كونية تصنع معًا منظومة الفرقان:

القانون الأول: قانون الرد الأحسن ــــ لا شبهة إلا ولها ردّ أحسن منها ﴿وَلَا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحسَنَ تَفسِيرًا﴾.

القانون الثاني: قانون السنة الكونية ــــ التكذيب له سنة في الأمم، والتغيير التدريجي أرسخ من الصدمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ المُجرِمِينَ﴾.

القانون الثالث: قانون النموذج الفاعل ــــ الحجة تُقنع العقل لكن النموذج يُقنع الروح. ولهذا جاء عباد الرحمن في نهاية السورة لا في أولها ــــ لأنهم الثمرة التي لا تجيء إلا بعد أن تكتمل الحجة ويُعذر صاحبها.

10 الخاتمة :الحاجة الإنسانية الدائمة إلى الفرقان

يتضح من استقراء السورة ومقارنتها بما وصل إليه العلم أن "الفرقان" ــــ بمعناه الأشمل: الفصل الواضح بين الحق والباطل ــــ ليس ترفًا دينيًا بل ضرورة وجودية للإنسان. فالإنسان كيان يُبنى بالمعنى والتمييز، وحين يفقد معياره الفارق يُصبح فريسةً لأول سردية مُهيمنة .

وما قدّمه القرآن في سورة الفرقان ليس فقط ردودًا على اعتراضات مشركي قريش، بل إطارًا منهجيًا متكاملًا يعمل في كل عصر: دمج الحجة العقلية بالشاهد الكوني والدليل التاريخي والتحذير من المآل ثم تقديم البديل الحي ــــ هذه المنهجية الخماسية هي ما يصف العلم الحديث أكفأ أساليب مواجهة التضليل .

وحين تختم السورة بعباد الرحمن لا بوعيد آخر، فإنها تُقرر الحقيقة الأعمق: الحجة وحدها لا تُقنع، والتحذير وحده لا يُحرّك ــــ لكن النموذج الحي الجميل يُفعّل في النفس البشرية ما يعجز عنه ألف كتاب. ﴿أُولَٰئِكَ يُجزَونَ الغُرفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ ــــ هذا ليس مكافأةً بالمفهوم الضيق فحسب، بل هو الإعلان الختامي بأن مسار الفرقان ينتهي بالسلام لا بالصراع، وبالتحية لا بالمواجهة، وبالغرفة ــــ الأفق الأرحب ــــ لا بالحصار.

> ﴿ أُولَٰئِكَ يُجزَونَ الغُرفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾

الفرقان: ٧٥

.وبهذا يكون الفُرقان اسمَ السورة ومضمونها ومنهجها وغايتها في آنٍ واحد ــــ وهذا وحده معجز

المصادر والمراجع

أولاً :المصادر الإسلامية

١. ابن عاشور، محمد الطاهر — التحرير والتنوير، الجزء التاسع عشر .الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م .ص ١—١٥٠

٢ .الماوردي، علي بن محمد — النكت والعيون، الجزء الرابع .دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م .ص ١٢٥—١٩٠

٣ .الطبري، محمد بن جرير — جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء التاسع عشر .دار هجر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م .ص ١—٢٢٠

٤ .ابن كثير، إسماعيل بن عمر — تفسير القرآن العظيم، الجزء السادس .دار طيبة للنشر، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م .ص٩٣—١٦٠

٥ .الزمخشري، محمود بن عمر — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الجزء الثالث .دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ .ص ٢

ثانياً :الدراسات العربية الحديثة

٦ .الخطيب، عبد الكريم — التفسير القرآني للقرآن، الجزء العاشر .دار الفكر العربي، القاهرة

٧ .درّاز، محمد عبدالله — النبأ العظيم :نظرات جديدة في القرآن .دار القلم، الكويت، ط٧، ١٩٨٥م .ص ١٤٠—١٨٠

ثالثاً :المراجع الأجنبية

أولًا :علم النفس الاجتماعي ونظريات الإقناع

8-. McGuire, W. J. (1961) The Effectiveness of Supportive and Refutational Defenses in Immunizing Beliefs. Sociometry, 24(2), 184–197

9-. Banas, J. A., & Rains, S. A. (2010) — A Meta-Analysis of Research on Inoculation Theory. Communication Monographs, 77(3), 281–311. doi:10.1080/03637751003758193

ثانيًا :اللغويات المعرفية والتأطير

10. Entman, R. M. (1993) Framing: Toward Clarification of a Fractured Paradigm. Journal of Communication, 43(4), 51–58

ثالثًا :المعلومات المضللة والذاكرة الجمعية

11. Vosoughi, S., Roy, D., & Aral, S. (2018) — The Spread of True and False News Online. Science, 359(6380), 1146–1151. doi:10.1126/science. aap9559

12. van der Linden, S. et al. (2017) Inoculating the Public Against Misinformation about Climate Change. Global Challenges, 1(2), 1600008. doi:10.1002/gch2.201600008

13. Halbwachs, M. (1992) On Collective Memory. University of Chicago Press. ISBN: 978-0226115962

14. Assmann, J. (2011) Cultural Memory and Early Civilization. Cambridge University Press. ISBN: 978-1107601994

رابعًا :التغيير السلوكي وعلوم الأعصاب

15. Clear, J. (2018) Atomic Habits. Avery Publishing, New York. ISBN: 978-0735211292

16. Freedman, J. L., & Fraser, S. C. (1966) Compliance without Pressure: The Foot-in-the-Door Technique. Journal of Personality and Social Psychology, 4(2), 195–202

17. Doidge, N. (2007) The Brain That Changes Itself. Viking Press, New York. ISBN: 978-0143113102

خامسًا :فلسفة العلم والمنهجية المعرفية

18. *Kuhn, T. S. (1962) The Structure of Scientific Revolutions. University of Chicago Press. ISBN: 978-0226458083*

19. Mercier, H. (2020) Not Born Yesterday: The Science of Who We Trust and What We Believe. Princeton University Press. ISBN: 978-0691178707